وداعٌ.. هو الوقت..

خالد أبو خالد

سأبتعد الآنَ..
لكن.. سآخذ جرحي معي.. وقميصي..
سآخذ آخر صوتٍ..
وآخر موتٍ..
وقبلتنا في الحريقِ الأخيرِ.. ووردي..
مغامرةَ الحلمِ..
تبغي.. وقهوتنا.. ونبيذي..
وأخلع عن رئتيكِ نزيفي..
وداع هو الوقت بين المحبّين..
مختصرٌ في الرسائلِ..
وهمُ خطوطٍ.. موزّعة في الفراغ ـ
يطير اليمام المحنّىٰ.. فأتبعهُ..
ليلنا جاهلٌ..
والنّواعير فضفاضةٌ.. كالرّثاء..

أودّع أغنية لا تقاوم قاتلَها..
وتخاتل رمّانها..
كي ترمّم بنيانها في الفناجين.. والقهوة البارده..
سكونٌ ظليل على النّبع.. شوكٌ على جسدٍ
صابرٍ.. لا يشاهَدُ في الطّرقِ المجهده

وأرتحل الآنَ..
يخرجني من هروبي الصّغيرِ.. هروبٌ كبيرٌ..
فآكل لحمي.. ولا أشتري ما يباعُ..
ولا أشتري ما يشاعْ..
وأدخل في هجرتي عارياً.. ووحيداً بدون متاعٍ
ومُنتَحلاً في شراعْ..

سأرتجل الآن أنشودة للوداع الأخيرِ..
وأكتبها في دمٍ قاصرٍ.. وحريرْ..
ـ عباءة صحوي على الحلمِ ـ..
إني أقومُ لألقي إلى النّعشِ إيماءة بيدي..
ثمّ أسعى إلى اللّيلِ ـ مقترحاً أن نكون صديقين..
من ظمأ.. وسوادْ..

لسوف أخيّم بين المحطّاتِ..
أنتظر العابرينَ.. لأسأل عنها حقائبهمْ..
والبريدَ..
وأحزانهم..
وخطاهمْ..
لعلّي أصادفها في العيون مهرّبةً.. في الزّمرّدِ..
والدّمعِ..
والشّمع..
بين المناديلِ.. والشّفقِ المعدنيّ..

صلاة ـ هو الصّمتُ بين المحبّينَ ـ مدهشةٌ.. والأسى
ـ من عيونٍ ستبكي غداً ـ سادرٌ.. وعَجولْ..
سأسترق السّمع عن نبأ يستردّ الضّفائرَ
من أسرها
والبراءة للخبزِ.. والماءِ.. والجسد العسليِّ..
الطّفولة من عربات الجنودْ..

سيكتمل اللّيل بعد قليلٍ بنجمتهِ..

أنت تكتملين بعزف الرّذاذ على قصب النّهرِ..
والقلب بالآس..
هل قلتِ يسكَنُ..؟ إنّي أقول استراحَ..
وودّعه نبضهُ في سرير الرّياحْ..
أيحتفل البحرُ بالموجِ.. أم بالعواصفِ.. والنوءِ..
والتّائهين؟
سأحتفل الآن بالحزنِ مسترسلاً
في الشّعاعِ..
وتحتفلين بليلينِ في غربتينِ.. بلا مطرٍ..
أو صباحْ..
فها هو جسرٌ.. تهدَّم في الرّوحِ..
وانْتَحبَت بعدنا في الميادينِ مخطوطةٌ.. وبقايا
جناح..
تساءلتُ..
ـ هل جئتِ حاملةً نهركِ الحلوَ..؟
أم برَّكِ المرَّ..؟
أو أنت مجنونة بالسَّفَرْ..؟
أتستدرجينَ من الوقت أجملهُ..؟
كي تمرَّ القلاع على جسدين مموَّهةً بالشَّجرْ..

ـ أرفرف..
لو جاء حينٌ عليكِ من الدّهرِ..
ـ أي لم تكوني ـ
سآتيك مشتعلاً بالصّورْ..

أراهن أنّ العصافيرَ جائعةٌ.. وتغني
وأنَّ سهولاً من العشقِ.. تحترق الآنَ
أنّ الكواكبَ مطفأةٌ..
والمراكبَ ما أقلعت.. والخليجَ خَطَرْ..
فإنّا قصيّان.. يحترفان سؤالاً يواصل
تحليقه في الأعالي..
ويبحث عن صوته في البَشَرْ..
وأنّ الدّماء تقاومنا.. وتفيضُ..
وأنَّ البكاءَ وميضٌ..
وعينَ الكتابة.. عمياءُ..
والحدْسَ أعمىٰ..
الأكاذيبَ سحرٌ.. ومستنقعٌ.. وحضيضْ

بكاءٌ.. هو الوجدُ..
من قال يفضي بنا الوعدُ نحو البساتينِ؟
من قال.. كلّ الغناءِ حنينْ؟
سأبكيك مقترحاً أن نعود إلى الحلمِ.. بالحلمِ..
كالحلمِ..
نبحث عنّا..
ونأتي إلينا.. على صهوةٍ.. أو كتابٍ
لكي نستعيد من الموتِ طير الرّمادْ..

وأقترح الآن بدءاً.. من النّارِ..
ضوءاً ودوداً..
خيولاً.. وغاراً..
لننشر حقل الأناشيدِ.. والعشقِ..
من غسق الماءِ.. حتّى الصّحارى..

هي المدن اليوم تكذب عريانةً.. في المرايا..
وتكذب خارجةً.. إذ يجيء العدوّ..
وتهرب من سيفها.. في السّهادْ

سأقترح الآن موتي..
وأشترط المهرجان الجميل..
لكي لا يموت النّخيلُ.. وكي لا يميلْ..
وكي لا يمرّ المعزّون بامرأةٍ غادرتني مبكّرةً
ثمّ كي يستمرّ اشتعال القناديلِ في سقف بيتي..
بُعيدَ الأصيلْ.

دمشق